لمن قهره[1]، ومعنى ﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾ في السّياق، ضعفوا وذلوا والاستكانة الانكسار والوهن، وعدم الاستكانة مؤشّر على الشّهامة وعلوّ النّفس، ومتانة الدّين، والغيرة عليه.

5) ﴿أَصَابَهُمْ﴾: الوُصُولُ وَبُلُوغُ الغَايَةِ، وَالمُصِيبُ: البَالِغُ غَايَتَهُ، وَضِدُّ الإِصَابَةِ: الخَطَأُ، وَتَأْتِي الإِصَابَةُ بِمَعْنَى: أَخْذِ الشَّيْءِ وَالحُصُولِ عَلَيْهِ، وَأَصْلُ الإِصَابَةِ مِنَ الصَّوْبِ وَهُوَ القَصْدُ، وَمِنْ مَعَانِي الإِصَابَةِ أَيْضًا: الإِدْرَاكُ والإِمالةُ والنَّجَاحُ والإِيجَادُ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

توجيه المؤمنين إلى الصَّبر عند القتال، أُسوة بأتباع الرُّسل المخلصين

كم من نبيٍّ من الأنبياء السَّابقين، قاتل معه نخبٌ أثيرة كثيرةٌ، من أتباعه الصّادقين، وحواريّيه المخلصين، فما تقاعسوا عن الجهاد، ولا تثاقلوا عن الجلاد، رغم ما أصابهم من جروح وقروح، وما حلّ بهم من قتل وتنكيل، بل احتسبوا ذلك في سبيل الله، وما تأخّروا عن قتال العدوّ، ولا خضعوا له، ولا باعوا دنياهم بالدّين، بل صبروا وثبتوا، والله يحبّ الصَّابرين، ويجازيهم في الدّنيا والآخرة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ تقديم ذِكر المحاسن الفعليَّة على القوليَّة:

تقديم ذِكر الأفعال على الأقوال للأهمية

قدّمَ ذِكر المحاسن الفِعليَّة في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: 146]، على المحاسن القوليَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ [آل عمران: 147]؛ للاهتمام بها وللتنبيه على أنَّ ثباتهم وقوّتهم في الدّين وكونهم ربّانيين منشأ

(1) الخفاجيُّ: عناية القاضي: 3/69.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (صوب).
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 94، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 68، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 68.

المحاسن القوليَّة في طلب المغفرة وتثبيت الأَقدَام والنَّصر[1]. وأيضا جاءت المحاسن الفعلية على طريق نفي لِلإشعار بأنَّ الأصل في قتال الكافرين هو الجدُّ في العزيمة والقوّة في الإقدامِ والعزّة والظُّهور على العدوِّ.

مناسبة الوصل بالواو في الآية:

لمّا ذكر الله تعالى الذين وهنوا وضعفوا من المؤمنين في غزوة أحد ناسب أن يقوّي عزمهم بضربِ المثل للمؤمنين بمن سلف من صالحي الأمم من الذين قاتلوا الكفّار مع أنبيائهم، فإنَّ في ذكر النّظير تقويةً للعزائم ورفعًا للهمم، ولمّا مثّل بذكر وصف النبوّة وذكر أوصاف الربيين الذين معه دلَّ على أنّ الأولى لهم أن يكونوا أثبت من الربيين وأشدَّ عزيمة منهم في قتال العدوِّ؛ لأنَّ صاحبهم متّصف بوصف الرسالة، والرسول أعلى مرتبةً من النبيِّ، فسِيقت الآيةُ لتبكيتِ المنهزمين الَّذين لم يستَنُّوا بسُنن الرَّبانيين المجاهدين مع الرُّسل ﷺ مع أنَّهم أَولَى بذلك حيث كانوا خير أُمَّة أُخرجت للنَّاس

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿وَكَأَيِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾:

التأسّي بمَن مضَى من صالحِي الأُمم السَّابقة

﴿وَكَأَيِّن﴾ في الكلامِ بمنزلة (كم) الخبرية في إفادة تكثير عدد تمييز مجرورِها، غير أنَّ دلالتها على التكثير أوسع من دلالة (كم) وهي تفيد مع التّكثير تأكيده وتعظيم ما سيقت له وتفخيمه[2]، فأفادت ﴿وَكَأَيِّن﴾ تكثير عدد الجماعات من كلِّ نبيٍّ قاتل معه ربّيون كثير، وتصديرها في الكلام يؤذن بعظم أوصافِ الربّيين المذكورة.

التَّكامل الدَّلالي للقراءات في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن﴾:

قراءة: ﴿وَكَأَيِّن﴾ لنافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائيِّ من السَّبع، ويعقوب وخلف من بقيّة العشر، وقرأ ابن كثير وأبو جعفر، والأوَّل من السَّبع والثَّاني من بقيَّة العشر: ﴿وَكَآيِن﴾ بألف بعد الكاف همزة مكسورة بعده، إلَّا أنَّ ابن كثير قرأ بتحقيق الهمزة،

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/351.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/182، والسامرائي، معاني النحو: 2/342.

على حين قرأ أبو جعفر بتسهيلها مع المدِّ والقصر[1]، أمّا (كائن)؛ فمعناها المثبت عند النُّحاة وكبار المفسِّرين: هو معنى كم الخبرية المفيدة التكثير مثل (كأيّن) غير أنَّ دلالتها على التكثير أوسع من دلالة (كم)؛ ولذا قالوا في معناها: إنَّه (كم وكم) تكثيرًا؛ مراعاة لأصل معنى: إفادة زيادة المبنى زيادة المعنى، كما هي القاعدة المعروفة، وأمّا التَّسهيل وأثره في المعنى مع المدِّ اعتبارًا بالأصل؛ فإنّ المُسَهَّل: أصله محقَّق، فالاعتداد بالأصل يقتضي إجراء الفرع مُجْراه، فكان المدُّ، وأمَّا القصر؛ فاعتدادٌ بالعارض، وهو ذهاب الهمز بالتَّسهيل، فذهب داعي المدِّ من حيث إنَّه روعي فيه عند تحقيق الهمز بعد ما بين المخرجين مخرج الكاف عن مخرج الهمزة، هو ما يستوعب بُعْدَ ما بيْن أقصى اللِّسان وأقصى الحلق، وهذا الّذي يقوله علماء الصّوتيَّات لا يصادر على معنى: أنَّ التَّسهيل ضربٌ من الإخفاء، وهو النُّطق بالهمزة بحالة بين الهمز وبين الحرف الذي منه أُشكلت، وإذ هو الكسر هنا، فذلكم النُّطق بالهمزة بحالة بينها وبين الياء، وذلك الخفاء إيحاء تعبيريٌّ تصويريٌّ ينسحب على المعنى يوسِّع دلالته، ويعمِّق مغزاه، وكأنَّه يقول: إنّ كثرة ذلك الّذي تضمَّنته الآية أمثلة ووقائع وأسماء، قد علمه من علمه، وغاب عمّن غاب عنه عن غير تقصير في تحصيل؛ لأنّ خفاءه موغل في الزمن، بعيد في الماضي السحيق بعدًا يُشعِرُ به المدُّ مع التَّسهيل، بيْد أنَّه الخفاء والبُعْد الَّذي لا يمنع أصل العلم به وحصول الخبر الصّادق الثَّابت عنه، وهو فوق ذلك توسُّع في إشاعة التّحدي وإذاعته وإفاضة المعجزة ونشرها بإجرائه على ألسنة العرب كافة، من حيث إنَّ التسهيل إحدى لغات القبائل العربية والأمصار ولهجاتها الفصيحة ذات الدلالات البعيدة المفيدة.

دلالة التَّنكير في لفظ ﴿نَّبِيّ﴾:

أفادَ التَّنكير في لفظة ﴿نَّبِيّ﴾ التَّعظيم، وهو اللّائق لوصفِ النبوَّةِ[2]، ليكون مناسبًا للسياق الوارد على معنى التكثير والتّفخيم الذي أفادته ﴿وَكَأَيِّن﴾، فذكر لفظَ ﴿نَّبِيّ﴾، لتكون التسلية أعظم للنّبي ﷺ وللصّحابةِ بذكر ما هو طبق ما وقع في غزوة أحدٍ[3].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/519، وابن الجزري، النشر: 2/242.
(2) الآلوسيُّ: روح المعاني: 2/296.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/86.

القراءات القرآنية:

تعدّد القراءات وتوسّع المعنى

قرأ نافعٌ وابنُ كثير وأبو عمرٍو ويعقوب بضمِّ القاف وكسر التَّاء من غير ألف ﴿قُتِلَ﴾، وقرأ ابن عامر، وعاصم ابن أبي النَّجود وحمزة والكسائيُّ وأبو جعفر يزيد بن القعقاع وخلف البزّار بفتح القاف والتَّاء وألف بينهما ﴿قَاتَلَ﴾[1]، ولكلٍّ قراءة معنًى[2]:

1) فمن قرأ بالبناء للمفعول: ﴿قُتِلَ﴾؛ فيحتمل المعنى وجهين: الأوَّل: أن يكون المسند إليه هو الضّمير العائد إلى (نبي)، والمعنى أنَّ النبي قُتِلَ، ويكون (معه ربّيون كثير) حالًا على الأرجح، والمعنى أنَّ النبيَّ قُتِل فما وهن الربّيون الكثير لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، ووجه حسنِ هذا التّوجيه على هذه القراءة أنّها مناسبةٌ للواقعة، وذلك أن المؤمنين إنما تخاذلوا لما قيل قُتِلَ محمَّدٌ، فضرب المثلَ بنبيٍّ قُتِلَ.

الثاني: أن يكون المسند إليه هو (ربّيون)، والمعنى، كثيرٌ من الأنبياء قُتِل ربّيون كثير كانوا معهم، فما وهنَ الباقون منهم وما ضعفوا وما استكانوا. ووجه حسن هذا التّوجيه على هذهِ القراءة أنَّ السّياقَ واردٌ في معاتبةِ الذين انهزموا يوم أُحُد، وعذلِهم على تركِهم القتال، بعدَ ما سمعوا الصائح يصيح: "إنَّ محمدًا قد قتل" فأخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلا فعلتم كما كان يفعل أتباعُ الأنبياء، وقد ورد عن الحسن وسعيد بن جبير أنّه لَمْ يُقْتَلْ نَبِيٌّ فِي حَرْبٍ قَطُّ.

ووجه حسن هذه القراءة على التّوجيهين معًا، أن (قُتِلَ) يَظْهَرُ فيها المَدْحُ أكثرَ من (قاتلَ)، وَهِيَ أَبْلَغُ فِي مَقْصُودِ الْخِطَابِ، لِأَنَّهَا نَصٌّ فِي وُقُوعِ الْقَتْلِ، وَيَسْتَلْزِمُ القتلُ حصولَ الْمُقَاتَلَةِ، وأمّا (قَاتَلَ) فلَا تَدُلُّ عَلَى الْقَتْلِ، إِذْ لَا يَلْزَمُ مِنَ الْمُقَاتَلَةِ وُجُودُ الْقَتْلِ، فقَدْ تَكُونُ مُقَاتَلَةٌ وَلَا يَقَعُ قَتْلٌ، ويكون المراد على هذه القراءة الحثّ على الثباتِ عند قتالِ العدوِّ

2) أمَّا من قرأ ﴿قَاتَلَ﴾؛ فالمعنى: له وجهان كذلك: الأول أن يكون الفاعل الضّمير العائد على ﴿نَّبِيّ﴾ والمعنى وكم من نبيٍّ قاتل والحال معهم ربّيون كثير، والثاني: أن

(1) ابن الجزري، النشر: 2/242.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/264، وابن جنّي، المحتسب: 1/173، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/520، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/380، والنيسابوري: غرائب القرآن: 2/273، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/370.

يكون الفاعل هو ﴿رِبِّيُّونَ﴾ والتّقدير، وكم من نبيٍّ قاتل معه العددُ الكثيرُ من أصحابه، فأصابهم من عدوِّهم قَرْحٌ فما وهنوا؛ لأنَّ الَّذي أصابهم إنَّما هو في سبيل الله، فكذلك ينبغي أن تفعلوا يا أمَّة محمَّد.

ووجه حسن هذه القراءة على التّوجيهين معًا أنها أعم في المدح؛ لأنَّه يدخل فيها من قُتِلَ ومن بَقِي، ويكون الغرضُ على هذه القراءة ترغيب الذين كانوا مع النبي ﷺ في القتال.

ورجّح ابن جنّي إسناد الفعل في القراءتين إلى ﴿رِبِّيُّونَ﴾ وأيّده ابن عطيّة؛ لما دلَّ عليه السياق من معنى التّكثير الدالِّ على كثرةِ الأشخاصِ؛ بدلالة ﴿وَكَأَيِّن﴾ و﴿رِبِّيُّونَ﴾ و﴿كَثِيرٌ﴾، فيكون القتل أو المقاتلة منسوبًا للربّيين، كما أنَّ السياق جارٍ في عتاب المنهزمين ليذكَرهم بحال الثابتين مع الأنبياء من قبل.

نُكتة المجاز المرسل في قوله: ﴿قُتِلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾:

التَّنبيهُ على الاقتداء بِسِيَرِ الصَّابرين وأحوالهم

على قراءةِ من قرأ بالفعلِ المبني للمفعول ﴿قُتِلَ﴾ إذا كانَ مُسندًا إلى ﴿رِبِّيُّونَ﴾، فالمعنى وكأين من نبي قُتِلَ ربيون كانوا معه، وبَقِيَ على دينه رِبِّيُّون كثير فما ضعف الباقون ولا استكانوا بقتل من قُتِلَ من إخوانهم بل مضوا على جهاد عدوِّهم فينبغي لكم أن تكونوا كذلك[1]، فالمقتول هو بعض الرّبّيين وليس جميعَهم، فيكون التّعبيرُ بـ ﴿رِبِّيُّونَ﴾ على طريقة المجازِ المُرْسلِ بعلاقةِ العمومِ، من بابِ ذكر العامّ وإرادة الخاصِّ.

دلالة إيثار الظَّرف (مع) مع تقديمه على ﴿رِبِّيُّونَ﴾:

رفعة منزلة القتال في سبيل الله وبيان أصالة الأنبياء فيه

قدّم الظّرف ﴿مَعَهُۥ﴾ للاهتمام بالمعيَّة؛ للتنبيه عَلَى أصالة النَّبيّ في القتال، في كونه قائدًا متبوعا، وهو اللَّائق بأنبياء الله عليهم السلام، وعلى

(1) زاده: حاشية على البيضاويّ: 3/186.

توجيه أن يكون ﴿رِبِّيُّونَ﴾ فاعلًا يفيدُ تقديم الظّرف أيضا العناية بالفاعل لا التّخصيص[1].

دلالة النِّسْبَةِ في لفظة ﴿رِبِّيُّونَ﴾:

تأييد الله لأنبيائه ورسله تكون بالصَّالحين المُخْلِصين من النَّاس

فالرِّبِّيُّ يحتمل أنّه منسوبٌ إلى الرَّبِّ كالرَّباني وكسرُ الرَّاءِ من تغييرات النَّسَبِ، فهُم العُلَماءُ الأَتقياءُ العارفون بربّهم والعابدون له، ويكون الرِّبِّيُّ كالرَّبانيّ، وهو الظّاهر، ويدل على هذا المعنى اقترانُهم بذكرِ النَّبيّ، ويحتمل أنّه منسوبٌ إلى الرِّبَّة، وهي الجماعة الكثيرة فتكون النِّسبة للمُبَالَغَة للكثرةِ كأحمري، ومادامو مع الأنبياء فهم أتقياء، فالمعنى على كلا الاحتمالين قريب، فكثيرٌ من الأنبياء قاتلَ معه لإعلاء كلمةِ اللّه وإعزاز دينِه علماءُ عابدون أو جماعاتٌ كثيرة أتقياء فثبتوا على دينهم[2].

نكتةُ وصفِ الجمعِ ﴿رِبِّيُّونَ﴾ بصيغةِ المفرد ﴿كَثِيرٌ﴾:

يأتي لفظ (كثير وقليل) ويعامل موصوفهما معاملة لفظ شيء أو عدد، فيكون المعنى هو الجمع والصّيغة صيغة المفرد، ولم يذكر لفظ الجمع في الصِّفة ﴿كَثِيرٌ﴾ ليناسب جمعَ الموصوف ﴿رِبِّيُّونَ﴾؛ لمناسبةٍ في الدَّلالة على أنَّ الرِّبِّيِّين في ثباتهم كانوا على قلب رجل واحد، فكأنَّ الكلَّ في واحد، فهذا من أثر إفراد الصِّفة في اللَّفظ، وقد يكون مثل ذلك لإفرادها في الرَّسم، والمعنى على الجمع، وذلك إعجاز لا يُعْهد في غير القرآن العظيم وسبحانه من هذا كلامه[3].

بديع مُراعاة النَّظير في وصف ﴿رِبِّيُّونَ﴾ بـ ﴿كَثِيرٌ﴾:

وصْفُ الرِّبِّيين بأنّهم ﴿كَثِيرٌ﴾ من باب مُراعاة النَّظير الذي دل عليه لفظ ﴿وَكَأَيِّن﴾ المفيد للتَّكثير، فإنَّ كثرة الأنبياء وتَتَابُعَهُم يدلّان على كثرة من يؤمن منهم ويَتَّبِعُهم.

(1) القونويُّ: حاشية القونويِّ على البيضاويِّ: 6/347.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (ربب)، وأبو السُّعود: إرشاد العقل السليم: 2/95، والقونويُّ: حاشية القونويِّ على البيضاويِّ: 6/348.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/118.

دلالة الفاء في قوله ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾:

أفادت الفاء أمرين أحدهما الإشعارُ بتوقُّع الوهن من القتال على العموم، والثاني ترتُّبَ نفي الوهن وما بعده عن الربّيين على قتالِهم مع نبيّهم، وفيه إيذانٌ بأنَّ وجود النبيِّ معهم كان سببًا في نفي الوهنِ عنهم، ففيه تأكيد التّعريض بالصحابة الذين انهزموا يومَ أحدٍ ولم يثبتوا في القتال مع أنَّهم كانوا مع رسولِ اللّهِ ﷺ.

مناسبة تقييد الوهن في قوله ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

ورد القيدُ ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في مقام علّة نفي الوهن عنهم، وقوله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حالٌ في مقامِ التّعليلِ، فإن كونَ ذلك في سبيله ﷻ مما يقوِّي قلوبَهم ويُزيلُ وهنَهم[1]، ولمّا كان المعطوفان ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ مشتركين في الحكم مع المعطوف عليه بقيدِه، كان الكلامُ على نيَّةِ تكرارِ القيدِ والتّقديرُ (وما ضعفوا لما أصابهم في سبيل الله وما استكانوا لما أصابهم في سبيل الله)، أو يقال إنَّه حذف من المعطوف الأول والثاني لدلالة ما ذكر في المعطوف عليه، إيجازًا في الكلام وللاهتمامِ بشأنِ نفي الوهن الذي ينبى عليه ما بعده[2]، وهذا القيد يجري في الآية التالية كذلك، فكون ما أصابهم في سبيل الله هو علّة قولهم المذكور.

نُكتة ترتيب المعطوفاتِ: (الوَهَنُ والضَّعْفُ والاستكانة):

ترتيبُها في الذِّكر على وفقِ ترتيبها في الحصول

لمّا كان العطفُ يقتضي المغايرة بين المعاطيف دلَّ على أن الوهن والضعف والاستكانة متغايرة في المعنى، فالمعاني على التّأسيس لا التّأكيدِ، ومِن اللّطائف: ترتيبُ هذه الثلاثةِ في الذِّكر على حسَب ترتيبِها في الحُصولِ ترتيبًا تلازميًّا تصاعديًّا؛ فإنَّه إذا فترتِ العزيمةُ والاجتهادُ في الإقدامِ في الحربِ، ضعفت القوّة وفَشِلت الأعضاءُ، وجاء الاستسلامُ، فتظهر المذلَّةُ والخضوعُ للعدوِّ[3]، فالوهن أشدُّها، ويليه الضَّعف، ويليه الاستكانة فَنَفَى أوَّلًا الأبلغ ثُمَّ ما دونه ثُمَّ ما دونه؛ لأنَّ نفي الأخصِّ لا يستلزم نَفْيَ الأَعَمِّ[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/95.
(2) ابن عرفة: تفسير ابن عرفة: 1/426، والبِقاعيُّ: نظم الدُّرر: 5/87.
(3) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/118 - 119.
(4) البسيليُّ التَّقييد الكبير ص: 580.

بلاغة التّعريض في هذه الآية:

في الآية تعريض بما أصاب المسلمين يومَ أحدٍ من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول اللّه ﷺ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم، والغرض من هذا التّعريض تشجيع المؤمنين على القتال وحثّهم على الاجتهاد والثبات عند قتال الكفار، فإنّه إذا كان أصحاب الأنبياء السّالفين قد ثبتوا وصبروا عند حلول المصائب أو موت المتبوع وما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا، فالأولى للمسلمين أن يتّصفوا بصفاتِهم أو يزيدون[1].

في جملة التّذييل فوائد لغويّة وبلاغيّة في قولِه تعالى ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هي[2]:

حسن التّذييل

تأكّد مضمون الجملة وتقوّى حكمها بمجيئها اسميّةً مخبرًا عنها بقوله ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، والمعنى تحقيق محبّة اللّه للصّابرين، لبيان اصطفائهم للإكرام بمحبَّة اللّه تعالى.

وفي الجملةِ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ فلم يقل (واللّه يحبّهم) للثناء عليهم بالوصفِ الأحسن الذي هو ملاك الأمر، كما أنَّ التّعبيرَ بالاسم المشتقِّ مشعرٌ بعلَّة الحُكْمِ، والمعنى اللّه يحبّهم لاتّصافهم بالصبر.

ومجيء الفعل ﴿يُحِبُّ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على أنَّ حبَّ اللّه للصّابرين يستمرُّ بتجدّد أثره فيهم حالًا فحالًا

وتحتمل (أل) في الصابرين أن تكون عهديَّةً، فيكون المرادُ المذكورين في سياق الآيات، كما تحتمل أن تكون جنسيَّةً، فتفيد استغراق الصَّابرين على العموم، وقوّى معنى العموم حذف المتعلَّق، والمعنى واللّه يحبُّ كلَّ صابرٍ عَلَى مَا أَصَابَهُ مِنْ قتلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جُرْحٍ، أَوْ بَلَاءٍ، أَوْ أَذًى يَنَالُهُ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ مُصِيبَةٍ فِي نَفْسِهِ، أَوْ أَهْلِهِ أَوْ مَالِهِ، أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ، ويدخل فيهم المتحدَّث عنهم دخولًا أوَّليًّا.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/424، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/350، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/116.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/373، وأبو السُّعود: إرشاد العقل السليم: 2/96، والآلوسيُّ: روح المعاني: 2/297.

ولمّا كانت جملة التّذييل على معنى العموم مع إيجازها آذنت بأنّها تجري مجرى المثلِ في عمومِه وكلّيَّتِه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضَّعْف والإستكانة والوَهَن:

الضَّعْف هو خلاف القوَّة، وقد يكون في النَّفس أو في البدن أو في الحال[1]، وَقد خلق الله الإنسان بهذا الوصف، فقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النِّساء: 28]، والوهن هُوَ أَن يفعل الْإِنْسَان فعل الضَّعِيف يقال وَهَن في الْأَمر يَهِنُ وهَنًا، إِذا أَخذه بضعف، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [آل عمران: 139]، أَي لَا تَفعلُوا أَفعَال الضُّعَفَاء، وأنتم أقوياء على مَا تطلبونُهُ فالله يذلّل لكم ذلك، ويعينكم عليه، وَأمّا الاستكانة فهِيَ إِظْهَار الضّعْف عند النّزال، بتسليم القياد والرّضوخ، كقوله تَعَالَى ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾، أَي لم يضعفوا بِنُقْصَان الْقُوَّة وَلَا اسْتَكَانُوا بِإِظْهَار الضَّعْف عِنْد المقاومة[2]، وأمّا الوهن، فهو ضعف من حيث الخَلْق أو الخُلُق[3]، وفي عمدة الحفّاظ: أنَّه ضعف ورقٌّ[4]، ومن خلال الجمع بين الوهن والضَّعف والاستكانة، يتبيَّن: أنَّ الضَّعف خلاف القوَّة، وأنّ الوهن ضعفٌ شديد يؤدِّي إلى تعطيل حركة الجسم، وأنّ الاستكانة ضعف يؤدّي إلى تسليم الزّمام، عند اليأس من المقاومة، فيكون حال الربّيين، أنّهم لم يصبهم الضَّعف بألوانه ومسمّياته، ولا صدَّهم عن االمغالبة والثبات في ميدان النّزال، توخّيًا لطاعة الله، واتّباعا لأنبيائه الكرام، ومواصلة للجهاد في سبيل الله.

الإصابة والمسّ:

أنَّ المسَّ يُقال في كلِّ ما ينال الإنسان من أذى[5]. والإصابةُ في اللُّغة الأَخذ والنَّيل والوصول والإدراك، والإصابة في الخَير اعتبارًا بالصَّواب، أي: بالمطر، وفي الشَّر اعتبارًا

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 506 - 507.
(2) العسكريُّ: الفروق اللُّغوية، ص: 116، والبسيلّي التقييد الكبير، ص: 580، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/118.
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 887.
(4) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (وهن).
(5) الراغب، المفردات: (مسس).

بإصابة السَّهم[1]. والإصابةُ أخفُّ من المسِّ، والإصابة أكثر استخدامًا في الخير من المسِّ، والمسُّ أكثر استخدامًا في الضّر والشّر من الإصابة[2].

الاستكانة والفتور:

لمّا كانَ الفتور: سكونًا بعد حدَّة، ولينًا بعد شدَّة، وضعفًا بعد قوة[3]؛ وهو أمرٌ طبعي، ويرجع بتجدّد النَّشاطِ ورفعِ الهمَّة، وكانت الاستكانة بمعنى الخضوع للعدوِّ والذلَّة له بالاستسلام الماديِّ أو المعنويِّ عبّر بقوله ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۚ﴾ لأنَّ الاستكانة لا ينبغي أن تكون لمؤمن بالله ورسوله.

السَّبيل والصِّراط والطَّريق:

فرَّق العسكريّ بين الصِّراط والطَّريق، بأنَّ الصِّراط هو الطَّريق السَّهل، والطَّريق لا يقتضي السُّهولة[4]. وفرَّق الكفويُّ بينها بأنَّ السَّبيل هو أغلب وقوعًا في الخَيْر، وَلَا يكَاد اسْم الطَّرِيق يُرَاد إِلَّا مُقترنًا بِوَصْف أَو إِضَافَة تخلصه لذَلِك، والصِّراط كذلك إِلَّا أَنَّ الطَّرِيق هُوَ كلّ مَا يطرقه طَارق، مُعْتَادًا كَانَ أَو غير مُعْتَادٍ، والسَّبيل من الطُّرق مَا هُوَ مُعْتَاد السُّلوك، والصِّراط من السَّبِيل مَا لَا التواء فِيهِ وَلَا اعوجاج، بل يكون على سَبِيل القَصْد فَهُوَ أخص مِنها[5]. زِد على ذلك أنَّ سبيلًا وصراطًا يختصَّان بالإضافة إلى لفظ الجلالة وإلى سواء دون طريق، وأنَّ السَّبيل تختصُّ بإضافة ابن إليها وبإضافتها كثيرًا إلى الله تعالى دونَ صِراط الَّتي أضيف إليه لفظ الجلالة مرّة وحيدة[6].

(1) الراغب، المفردات: (صوب).
(2) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنية: 2/938.
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 622.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313.
(5) الكفوي، الكليات، ص: 512، و513.
(6) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنية: 2/868.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: 147]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللّه تعالى حال الرِّبِّيّينَ وما كانوا عليه من الجَلَد والصَّبر، وعَدَم الوَهنِ والاستكانةِ للعدوِّ، وذلك كلُّه من الأفعالِ النَّفسانيَّة التّي يَظْهَر أثرُها في الجوارح، ذكَر مقالهم وما كانوا عليه من الإنابةِ والاستغفارِ، والالتجاءِ إلى اللّه تعالى بالدُّعاء[1]، فلمَّا أثنى سُبحانه وتعالى على فِعْلِهِمْ أتبعه قَوْلَهُم[2]، بأن يدعو اللّه أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم، ويثبِّت أقدامهم، وينصرهم على عدوِّهم.

الانتقال من الثَّناءُ على أفعال أتباع الرُّسُل، إلى الثَّناء على قولهم ودعائهم

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱغْفِرْ لَنَا﴾: الغُفْرانُ: المُسامَحَةُ والعَفو، يُقال: غَفَرَ لَهُ: إذا سامَحَهُ وعَفا عنه. والاستِغفارُ: طَلَبُ المَغْفِرَةِ. ويأتي الغُفْرانُ بمعنى التَّجاوُزِ عن الذَّنْبِ وعَدَمِ المُؤاخَذَةِ بِهِ، يُقال: غَفَرَ اللّهُ ذُنُوبَهُ، أيْ: سَتَرَها وتَجاوَزَ عنها. وأَصْلُ الغُفْرانِ مِن الغَفْرِ، وهو: التَّغْطِيَةُ والسَّتْرُ والإدْخالُ، ومنه سُمِّيَ العَفْوُ غُفْرانًا؛ لأنَّهُ سَتْرٌ لِلذَّنْبِ وإدْخالٌ لِلْعَبْدِ في العَفْوِ[3]، وقوله: ﴿ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: أي: لا تُعاقِبنا مُؤاخذة عليها، يُقال غفر اللّه ذنبه غَفْرًا وغُفْرانًا ومَغْفِرَةً، والمَغفرة: السَّتْرُ لِخُلَّةِ المُسلم وفاقَتِه، وتَرْكُ أذيَّته[4]، وَالْغُفْرَانُ وَالْغَفْرُ بِمَعْنًى واحد، قَالَ فِي الْغَفْرِ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/373.
(2) البِقاعي، نظم الدُّرر: 5/87.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (غفر).
(4) الرَّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: (غفر)، وابن عزير السِّجستانيُّ، غريب القرآن، ص: 354، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 117.

في ظِلِّ مَنْ عَنَتِ الْوُجُوهُ لَهُ *** مَلِكِ الْمُلُوكِ وَمَالِكِ الْغَفْرِ[1]

ولفظ: ﴿ٱغْفِرْ لَنَا﴾ دعاء يستجلب به الأمان، من صاحب الغفران، وهو في دلالته على السّتر متناسب مع عفو الله السِّتِّير الّذي يتجاوز عن سيّئاته، ويغفر حوباته.

2) ﴿ذُنُوبَنَا﴾: المراد بالذّنب في القرآن الكريم: هو المعصية الشّرعيَّة، وأصله اللُّغويُّ: هو الأخذ بذَنَبِ الشَّيء، أي: مؤخِّرته، وصار يستخدم في كلِّ فعل يستوخم عقباه؛ اعتبارًا بذنب الشَّيء، ذكر الفيُّوميُّ أنَّ الذَّنب هو الإثم، وأذنب صار ذا ذنب، بمعنى: تحمَّلَه،[2]، وذكر الرَّاغب الأصفهانيُّ أنَّ الذَّنب يستخدم لما يستوخم عقباه؛ ولهذا يسمَّى الذَّنب: تبعة؛ اعتبارًا بما يحصل من عاقبته[3]، وأنشد سيبويه:

أَسْتَغْفِرُ اللّٰهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيهِ ***رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْقَوْلُ وَالْعَمَلُ[4]

وللفظ (الذّنب) علاقة بالغفران، فلا يقع غفران، ما لم يكن عصيان، فإذا وقع الذّنب طلب الغفر، ولذلك كان لفظ (الغفور) من صفات الله تعالى، وهو من أبنية المبالغة، ومعناه السّاتر لذنوب عباده، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم[5].

3) ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾: الإسراف: الإفْرَاطُ في الشَّيْءِ، وَأَصْلُ الإِسْرَافِ: مُجَاوَزَةُ الحَدِّ في كُلِّ شَيْءٍ، وَضِدُّهُ القَصْدُ وَالاعْتِدَالُ، والإِسْرَافُ أَيْضًا: التَّبْذِيرُ، وَالمُسْرِفُ: المُبَذِّرُ، وَمِنْ مَعَانِي الإِسْرَافِ فِي اللُّغَةِ أَيْضًا: الإِغْفَالُ والإِهْمَالُ والإِتْلَافُ والتَّضْيِيعُ والإِهْدَارُ والإِفْسَادُ والغُلُوُّ والقَطْعُ[6]، والإِسْرَاف الغلوّ في الشَّيْء وَالْخُرُوج عَن الْقَصْد وَهُوَ من السَّفه[7].

4) ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾: الثَّباتُ: السُّكُونُ والاسْتِقْرارُ، ومنه: الثَّباتُ في المَكانِ، أي: السُّكونُ فيه والاسْتِقْرارُ. وأَصْلُه: الدّوامُ والإِقامَةُ، وضِدُّهُ: الزّوالُ والانْقِطاعُ[8]، الثّبات والثّبوت: ضد الزَّوال، والتّثبيت تقويّة الشّيء، ورجلٌ ثبتٌ وثبيتٌ أي لا يزول عن النّصر في الحرب،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(2) الفيُّومي، المصباح المنير: (ذنب).
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 331.
(4) ابن سيده، المحكم: (غفر).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (غفر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سرف).
(7) عياض، مشارق الأنوار: (سرف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: (ثبت).

وأصل ثبت يدلّ على دَوَام الشَّيْءِ، ورَجُلٌ ثَبْتُ القَدمِ: مُتَمَاسِكٌ لم يَزِلَّ في قِتال، وثباتُ القدم هُنا عبارةٌ عن كمال القوَّة والرُّسوخ عند المقارعة وعدمِ التَّزلزل وقت المُقاومة[1]، واللّفظ مناسب لمضمون الدّعاء، ولسبب النّزول.

5) ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: الكُفْرُ: نَقيضُ الإيمانِ، ويأْتي الكُفْرُ بمعنى الإنْكارِ والجُحودِ، فيُقال: كَفَرَ بالنِعْمَةِ، أيْ: أَنْكَرَها وجَحَدَها. وأَصْلُ الكُفْرِ: السّتْرُ والتّغْطِيَةُ، ومِنْهُ سُمِّيَ الزّارِعُ كافِرًا؛ لأنّهُ يُغَطِّي البَذْرَ بالتُّرابِ. ومنه سُمِّيَ غَيْرُ المُؤْمِنِ كافِرًا؛ لأنّهُ غَطّى الحَقّ والإيمانَ. ومِن مَعَاني الكُفْرِ أيضًا: البَراءَةُ، والامْتِناعُ، والكَذِبُ[2]، "والنّعم التّي سترها الكافر، هي الآيات التي أبانت لذوي التّمييز أنّ خالقها واحد لا شريك له، وكذلك إرساله الرّسل بالآيات المعجزة، والكتب المنزلة، والبراهين الواضحة"[3].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

تجلّي ضراعة المؤمنين الصّابرين، في الاستغفار وطلب النّصر والثّبات

وما كان قَولَ هؤلاء الصّابرين عند شدائد الحرب، ولأواء الصّدام، إلّا أن يدعوا الله أن يغفر لهم ما كانوا ألمّوا به من ذنوب، وما اقترفوه من خطايا، وما تجاوزوا فيه حدود الله، واحكام الشّرع الحنيف، وأن يمنَّ عليهم بتثبيت أقدامهم على الصراط القويم، حتى لاتزلزلهم الفتن عن الدّين، ولا يعتريهم الوهن، أو يداخلهم الفشل، عند لقاء الأعداء في ساحة الوغى[4].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللغة، ومرتضى الزّبيدي، تاج العروس: (ثبت)، وأبو السُّعود: إرشاد العقل السليم: 1/244.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كفر).

(3) الزّبيدي، تاج العروس: (كفر).

(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 440.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصلِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ بما قبله:

وصفهم بما يَدُلُّ على الثَّبات في الأقوال بعد الثَّبات في الأفعال

الآية عَطْفٌ على ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾، ومناسبة الوصل بين الجملتين الخبريّتين لفظًا ومعنًى أنَّه لمَّا وصفهم برباطة الجأش، وثبات القلب والجدِّ في الحربِ، وصفهم بعد ذلك بما يَدُلُّ على الثَّبات من أقوال اللِّسان التي تجري عليه عند الاضطراب والجزع[1].

بلاغة التَّتميم في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

بيان عدم تطرق الوهن إليهم قولًا وعملًا

لمّا ذكر محاسنهم الفعليّة في الآية السّابقة اقتضى المقامُ الإطنابَ ببيان محاسنهم القولية في مواطن الجزع والشدّة، ليُظهر ما ينبغي فعلُه وقولُه في تلكَ المواضعِ، فيكون ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ كالتَّتميم على سبيلِ المبالغة لبيانِ صلابتهم في الدِّين وعدم تطرُّق الوهن والضَّعف إليهم في الأفعالِ وفي الأقوال[2].

مناسبة مجيء الكلامِ على القصر في: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

لمّا تقدَّم خبر ﴿كَانَ﴾ على اسمِها في الآية؛ - على قراءة الجمهور - أفاد التّخصيصَ والتّأكيد ثم بالغَ في تأكيدِه بغرض المدحِ بمجيئه على طريقِ قصر الصفة على الموصوف، فصار الموصوف محصورًا؛ إذ المقصودُ حصْرُ أقوالِهم حينئذٍ في مقالة: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، فالقصرُ حقيقيٌّ؛ على سبيلِ المبالغة، كأنَّه لم يصدر منهم أي قولٍ إلَّا هذا القول، ويحتمل أن يكونَ قصرًا إضافيًّا أي باعتبار أنَّ قولَهم كان في حالِ حصولِ ما أصابهم في سبيلِ الله، فلم يصدر منهم إلا هذا القول بالإضافة إلى ذلك الحال[3].

(1) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/119.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/96، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/297.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/120.

مناسبة مجيء القصر بطريق النفي والاستثناء:

لمّا هلعَ من هلعَ من المسلمين يومَ أحد نزّلهم منزلة المخطئين المصرّين على خطئهم في أنَّ من سبقهم مِن أتباعِ الأنبياء كانوا يجزعون عند الحرب مع أنبيائهم، فجاء القصر بطريق النّفي والاستثناء على خلافِ مقتضى الظّاهر لِلردّ على اعتقاد من قد يَتَوَهَّمُ من المسلمين أنَّ أتباعَ الأنبياء من الرّبّيين قالوا أقوالًا تُنْبِئُ عن الجزع، أو الهلع، أو الشَّك في النَّصر، أو الاستسلام للكُفَّار لشدّة ما أصابهم في الحربِ،[1].

نكتة التَّعريض في القصر السَّابق:

لمّا أشعرتِ الآية السابقة بالتعريض بذكر ثباتِ الرّبّيين أعقبه هنا بالإخبار عنهم بأنَّه ما كان قولَهم إلَّا هذا دون ما فيه شائبة جزع وخوَر وتَزَلْزُلٍ، ليكون تعريضًا في الأقوالِ متمّمًا للتّعريض بالأفعال، فكانوا بأجسادهم وقلوبهم ثابتين، وبألسنتهم مستغفرين[2].

بيانُ حال المنهزمين وما هم فيه من الجزع والخَوَرِ

دلالة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

الاستثناء هنا مفرَّغ من أعمِّ الأشياء، أي: ما كان قولًا لهم عند أيِّ لقاء للعدوِّ، واقتحام مضايق الحرب، وإصابة ما أصابهم من فنون الشَّدائد والأهوال شيء من الأشياء إلَّا قولهم ذلك[3].

دلالة النّفي في قوله ﴿وَمَا كَانَ﴾:

فائدة دخول ﴿كَانَ﴾ المبالغةُ في نفي الفعل الدَّاخل عليه بتعديد جهة فِعْلِهِ، عموما باعتبار الكَوْنِ، وخصوصًا باعتبار خَصوصيَّة المقال، فكأنّه نفى مرَّتين أن يكونَ لهم أيُّ قولٍ تأكيدًا وتقريرًا ثمَّ استثنى قولَهم الدّعاء المذكور[4].

تأكيدُ النّفي لتقريرِ المعنى وتثبيته

(1) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/119.
(2) الآلوسيُّ: روح المعاني: 2/298.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/96.
(4) الآلوسيُّ: روح المعاني: 2/298، والخفاجي: حاشية الشِّهاب على البيضاويّ: 3/69.

نكتةُ عطف الخاصّ على العامّ:

الاهتمام بِطَلَبِ الغُفران وتحصيله

لمّا كان المرادُ من الذّنوب جميعَها في قوله ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كان عطف قوله ﴿وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ من عطف الخاصِّ على العام، لأنَّ الإسرافَ هو الإفراط وتجاوزُ الحدِّ، فيكون أوفق بطلب المغفرة من الكبائر، وخصُّوا الذُّنوب العظيمة الكبيرة منها بالذِّكر بعد ذلك لِعِظَمِهَا وعِظَمِ عقابها، والمعنى اغفر لنا جميعَ ذنوبِنا واغفر لنا تجاوزَنا الحدَّ في ركوب الكبائرِ[1].

مناسبةُ التّرتيب في الدعاء:

اللُّجوء إلى التوبةِ والاستغفارِ عند النوائب والمِحَن

جاء الدعاء على ترتيب أنيقٍ لطيفٍ، فبدؤوا بطلب مغفرة الذنوب كلّها ثم خصّوا الكبائر منها لعِظَمِها، إمَّا هَضْمًا لأنفسِهم وإمّا لأنَّه لا يخلو أحدٌ عن تقصير ما، فقدّموا طلبَ الاستغفارِ على طلبِ تثبيتِ الأقدام والنُّصرة؛ لأنّهم لما دعوا بمحو ما أَوْجَبَ الخِذلان دعوا بثمرة المحو فقالوا: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾، ثُمَّ طلبوا النَّصر عَلَى الأعداء المُرَتَّبِ على التّثبيتِ غالبًا؛ كما أنَّ طلبَهم التثبيتَ إذا كانَ عن زكاةٍ وطهارةٍ،، فالاستجابة تكون أرجى وأحرى بالقبول، كما أنَّ تقديم طلب المغفرة على التَّثبيت والنُّصرةِ من باب تقديم التَّخلية على التَّحلية، وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ضمِن النُّصرةَ للمُؤمنين، فإذا لم تَحصُل النُّصرةُ وظهَرتْ أماراتُ استيلاءِ العَدُوِّ، دلَّ ذلك ظاهرًا على صُدورِ ذَنبٍ وتقصيرٍ من المؤمنين؛ فلهذا المعنى يجبُ عليهم تقديمُ التَّوبةِ والاستغفارِ على طلبِ النُّصرة[2]، وطلب المغفرة أوقعُ من طلبِ إفراغ الصَّبرِ ولهذا اختار الرّبانيّون ذلك فمناجاتهم أحسن من تضرُّعِ قومِ طالوت[3]، وكذلك فإنَّ هذا الدُّعاء مُناسب

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/381، وأبو السّعود: 2/96، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/120.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/381، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/374، والبِقاعيُّ: نظم الدرر: 5/88، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/96، والآلوسيُّ: روح المعاني: 2/298.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/351.

للقتال؛ لأنَّ المُقاتل إمَّا أن يَقْصُرَ فيتخاذَل، وإمَّا أن يتجاوز الحدَّ فيُقتل في غير حاجة إلى القتال، فكان هذا الدُّعاء في موضعه[1].

نكتة الإضافة في قوله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾:

الاقتداء بالصَّالحين في هَضْمِ النَّفس وعدم الغرور

وإنما أضافوا الإسراف إلى أنفسهم مع أنّ الظاهر أنهم برآء من التفريط في جنب الله تعالى هضماً لأنفسهم واستقصارًا لهمهم وإسنادًا لما أصابهم إلى أعمالهم، على أنَّه لا يَبْعُدُ أن يُراد بتلك الذُّنوب وذلك الإسراف ما كان ذنبًا وإسرافًا على الحقيقة، على سبيلِ (حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين)[2].

دلالة ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بين أن يكونَ مجازًا مرسلًا بغرضِ الكناية وأن يكون استعارةً:

الثَّبات عند القتال يكون بعد الثَّبات في الدِّين والاستقامة عليه

وتثبيت القدم قد يكون مجازًا مرسلًا بإطلاق الجزء وإرادة الكلّ، والمعنى: ثبِّتنا. وعبَّر بالأقدام لأنَّ الثَّبات والزِّلزال يظهران فيها، وجاء المجاز المرسلُ الذي هو طلب تثبيت الأبدان والأجسام كناية عن طلب التَّثبُّت في مواطنِ الحربِ والجهادِ، إذ السّياق قرينة على أنّ الكلامَ في بيان الحرب.

وقد يكون استعارة ويحتمل معنيين أحدهما خاصٌّ بالسياق والمعنى شَجِّع قلوبنا على لقاء العدوِّ، والثّاني عامٌ، والمعنى ثَبِّتْ قلوبنا على دينك، ويدخل فيه التَّثبيت عند لقاء العدوِّ دخولًا أوّليًّا، وثبوت القدم في الحرب لا يكون إلا من ثبوت صاحبها في الدِّين، وكثيرًا ما جاءت هذه اللَّفظة دائرة في الحرب ومع النُّصْرَةِ[3].

دلالة حرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

لمّا كانت النصرة بمعنى حسنِ المعونة ومن لوازمها الغلَبة وكان

(1) أبو زهرة: زهرة التفاسير: 3/1441.

(2) الآلوسيُّ: روح المعاني: 2/297، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/493، والبروسوي: روح البيان: 2/107.

(3) أبو حيَّان: البحر المحيط: 3/374، والقنُّوجي، فتح البيان: 2/350.

طلبها من ربِّ العالمين مقترنًا بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ دلّ كلُّ ذلك على أنَّ علوَّ الرِّبِّيّين وتمكُّنهم من الكافرين إنّما هو بنصرِ الله وحده، ويشعرُ الكلامُ بأنَّهم لم يزالوا مواظبين على هذا الدُّعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والخور والتَّزلزل في مواقف الحرب ومراصد الدِّين[1].

من مناسباتِ ذكر دعاء الربّيّين:

في حِكَايَةِ دُعَاءِ الرِّبِّيِّينَ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ تَعْلِيمٌ لَنَا لَأَنْ نَقُولَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ عِنْدَ حُضُورِ الْقِتَالِ فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَدْعُوا بِمِثْلِهِ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَدُوِّ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَى ذَلِكَ عَنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْمَدْحِ لَهُمْ وَالرِّضَا بِقَوْلِهِمْ لِنَفْعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ وَنَسْتَحِقَّ مِنْ الْمَدْحِ كَاسْتِحْقَاقِهِمْ[2].

القراءات القرآنية وتعدّد المعنى:

قرأ العشرة ﴿قَوْلَهُمْ﴾ بالنصب خبرًا، ويكون اسم كان فيما بعد ﴿إِلَّآ﴾، وقرأ الحسن (قولهم) بالرفع[3]، وجعل الخبر فيما بعد إِلَّا، فعلى قراءة النّصب يكون الخبرُ مقدَّمًا على اسم كان ويفيد التّأكيد والتّخصيص، وفيه تعظيم المقول، لأنّه جاء في مقام المسندِ إليه، والمعنى دعاؤهم هو قولهم وليس لهم قولٌ غيرُه، ليؤذن بأنّهم كانوا يعرفونَ أنّه يوجد دعاء ولم يعرفوا قول من هو، فأخبر عنه بأنّه قولهم، وعلى قراءة الرَّفع يخبرُ عن قولِهم بأنّه هو الدعاء المذكور، فهم يعرفون أنَّ لهم قولًا ولكن لم يعرفوا ما كان نوعه ولا مفاده، فأخبر عنه بأنّه كان الدعاء المذكور، وعند بعض المفسّرين قراءة الرّفع أقعدُ بحسب المعنى وأوفق بمقتضى المقام لما أنَّ الإخبارَ بكون قولِهم المطلقِ خصوصيةَ قولِهم المحكيِّ عنهم مفصلاً كما تفيده قراءتهما أكثر إفادة للسامع من الإخبار بكون خصوصيةِ قولِهم المذكورِ قولَهم لما أنَّ مصبَّ الفائدةِ وموقِعَ البيانِ في الجُملِ الخبرية هو الخبرُ فالأحقُّ بالخبريَّةِ ما هو أكثرُ إفادةً وأظهرُ دِلالةً على الحدث، ولا يخفى أن ذلك ههنا في ﴿أَن﴾ مع ما في حيّزها أتمّ وأكمل[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/96، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نصر).
(2) الجصّاص، أحكام القرآن: 2/326.
(3) البنّاء، إتحاف فضلاء البشر: 1/229.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/97، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/522.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(مغفرة الذُّنوب) و(تكفير السَّيئات):

لفظ المغفرة يتضمَّن الوقاية والحفظ، ولفظ التَّكفير يتَضمَّن السَّتْرَ والإزالة، وعند اقتران الذُّنوب والسَّيئات، ينصرف معنى الذُّنوب إلى الكبائر، ومعنى السِّيئات إلى الصَّغائر، وعليه تكون المغفرة للذّنوب والتَّكفير للسَّيئات[1] قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران: 193]، فالمغفرة أكمل من لفظ التَّكفير، ولهذا كان مع الكبائر، والتَّكفير مع الصَّغائر؛ وعند الانفراد يدخل كلّ منهما في معنى صاحبه قال تَعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [مُحَمَّدٌ: 2]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: 53].

الذَّنب والإثم:

الذَّنب في أصل اللُّغة الأخذ بذَنبِ الشَّيء، ويُستعمل في كلِّ فِعل يستوخم عقباه اعتبارًا بذنب الشَّيء، ولهذا يُسمَّى الذَّنب تبعة اعتبارًا لما حصل من عاقبته. والإثم هو: اسم للأفعال المبطئة عن الثَّواب، وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: 219]، يعني في تناولهما إبطاء عن الخيرات[2]، أمَّا في الشَّرع، فقد يكونان أي الإثم والذَّنب بمعنى واحد، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ [النساء: 112]، قال ابن عطيّة: قيل هما بمعنى واحد، كرّر لاختلاف اللَّفظ تأكيدًا له، والخطيئة هي هنا الذَّنب، وقيل في تفسير الآية: إنَّ الخطيئة بمعنى الصَّغيرة، والإثم بمعنى الكبيرة. وقد يكونان - أي الإثم والذَّنب - مُتغايرين فيكون معنى الذَّنب المعصية، ومعنى الإثم ما يترتب عليها، فيقال: فلان أَثم بذَنْبِه[3]، وفي هذا ملمح بأنّ الذّنوب والآثام لا يطلب غفرانها عند التلبّس بها فحسب، بل وإن صلح العمل، ونأى المرء عن فعل المشين من الأفعال، فإنّ طلب غفران الذّنوب، والتّجاوز عن السّيئات، من أعظم القربات.

(1) ابن القيّم، مدارج السَّالكين: 1/317.
(2) الرّاغب، المفردات: (ذنب)، (إثم)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/19، والكفوي، الكليات، ص: 40.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/380.

الإسراف والتَّبذير:

الإسراف هُوَ صرف الشَّيْء فِيمَا لَا يَنْبَغِي زَائِدًا على مَا يَنْبَغِي، بِخِلَاف التَّبذير، فَإِنَّهُ صرف الشَّيْء فِيمَا لَا يَنْبَغِي، والإسراف: تجَاوز فِي الكميّة، فَهُوَ جهل بمقادير الْحُقُوق، والتّبذير: تجَاوز فِي مَوضِع الْحقّ، فَهُوَ جهل بمواقعها[1]، وليس الإسراف متعلّقا بإنفاق المال في غير وجوهه فقط، بل بكلّ شئ وضع في غير موضعه اللّائق به، من ذلك وصف قوم لوط بالإسراف، لوضعهم البذر في غير المحرث، فقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: 81]، ووصف فرعون بالإسراف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدّخان: 31]، لذلك فالإسراف أوسع في الدّلالة والاستعمال من التّبذير، وكلاهما مذموم ومنهيّ عنه، كما هو مدلول الآية.

(1) الكفويّ، الكلّيات، ص: 113.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»